الفصل الأول

تحديد المصطلحات

المحور الأول

ما الخير ؟

الخير والشر نقيضان عرفتهما البشرية منذ آدم وحواء، وشغلت قضية الخير والشر الفلاسفة والحكماء والإنسان بصفة عامة منذ بداية الحياة البشرية، والأديان السماوية كلها دعوة إلى الخير.

ولكن مفهوم الخير الذي نحاول الإمساك به في هذا البحث ليس بهذا القدر من العموم، إنه مفهوم الخير الذي جاءنا من القرآن الكريم، والذي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن تقوم فرقة منا بالدعوة إليه.

يربط الفخر الرازي[٥]، تفسير الآية ١٠٤ من سورة آل عمران: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "، بالسياق القرآني السابق للآية في السورة ذاتها فيقول: "اعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين (أحدهما) أنه عابهم على الكفر فقال: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ)، ثم بعد ذلك عابهم على إلقاء الغير في الكفر، قال: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)، فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً بالتقوى والايمان، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)، ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة، فقال: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل.

ثم يسرد الفخر الرازي آراء المفسرين السابقين في فرض العين وفرض الكفاية المدلول عليه في تفسير الآية قائلاً: وفي الآية مسألتان:

---

(٥) الإمام محمد الرازي فخر الدين ــ تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ــ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ المجلد الرابع ــ ص ١٨١ إلى ص ١٨٤.

المسألة الأولى في قوله (منكم) قولان (أحدهما) أن (من) هنا ليست للتبعيض لدليلين (الأول) أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)، (والثاني) هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما بيده، أو بلسانه، أو بقلبه. ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما كلمة من فهي هنا للتبيين لا للتبعيض.

ويضيف الفخر الرازي بأن (القول الثاني) أن من هنا للتبعيض، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضاً على قولين (أحدهما) أن فائدة كلمة (من) هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة، ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين، (والثاني) أن هذا التكليف مختص بالعلماء، ويدلل المفسرون على ذلك بأن الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فالجاهل ربما دعا إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف. وقد يغلظ الجاهل في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة. ويكرر الرازي ما ذكره جمهور المفسرين بأن الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان (أحدهما) الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف (والثاني) الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان.

ابن جرير الطبري[٦]، لا يزيد في تفسير هذه الآية عن القول بأن الله جل ثناؤه يعني أن تكون منكم أيها المؤمنون أمة، أي جماعة يدعون الناس إلى الخير يعني الإسلام، وشرائعه التي شرعها الله لعباده، يأمرون بالمعروف، أي باتباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله، وينهون عن المنكر، أي ينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد.

---

(٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ــ جامع البيان في تفسير القرآن ــ دار المعرفة ــ بيروت، ١٩٨٦م، المجلد الثالث ــ ص ٢٦..

ولكن بهامش تفسير الطبري نجد تفسير نظام الدين الحسن القمي النيسابوري[٧]، يقول في تفسير الآية الكريمة: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير" هو جنس تحته نوعان: الترغيب في فعل ما ينبغي من واجبات الشرع ومندوباته،والكف عما لا ينبغي من محرماته ومكروهاته، فلا جرم أن اتبعه النوعين زيادة في البيان.

يشرح محمد بن علي الشوكاني[٨]، مدلول الآية في تفسيره فتح القدير شرحاً مختصراً قائلاً: "(ولتكن) قرأه الجمهور بإسكان اللام، وقرىء بكسر اللام على الأصل، ومن في قوله (منكم) للتبعيض وقيل لبيان الجنس. ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفاً وينهون عنه منكراً. قال القرطبي: الأول أصح فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله سبحانه بقوله: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)، وقرأ ابن الزبير: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) قال أبو بكر بن الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن. وقد روى أن عثمان قرأها كذلك ولكن لم يكتبها في مصحفه فدل على أنها ليست بقرآن. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. وقوله (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة: أي يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم:أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله (وأولئك) ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها (هم المفلحون) أي المختصون بالفلاح".

---

(٧) المرجع السابق ــ ص ٣١ إلى ص ٣٤.

(٨) محمد بن علي بن محمد الشوكاني ــ فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ــ الجزء الأول ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ ص ٣٦٩.

لا تفارق النظرة الاجتماعية سيد قطب[٩]، عندما يشرح الآية الكريمة في ظلال القرآن، فيبدأ بأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة الاجتماعية قائلاً: "فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها.. هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله في الأرض، ولتغليب الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر.. هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه، ووفق منهجه، فهي التي تقررها الآية الكريمة.

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لابد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لابد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك "دعوة" إلى الخير، ولكن هناك كذلك "أمر" بالمعروف، وهناك "نهي" عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن "الأمر والنهي" لا يقوم بهما إلا ذو سلطان.

هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لابد من سلطة تأمر وتنهي، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي "دعوة" إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة "تأمر" بالمعروف "وتنهي" عن المنكر.. فتطاع".

ثم يقول: "والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحل الذي يكره الجد، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر، ولا تفلح الأمة،

---

(٩) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ دار الشروق ــ ط١٢ ــ القاهرة ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م ــ المجلد الأول ص ص ٤٤٤، ٤٤٥.

ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً، وهذا ما يقتضى سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهي وتطاع".

ويضيف: "أن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته، فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية، هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير، المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل، والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم، عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر، والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة، والحق فيه أقوى من الباطل، والعدل فيه أنفع من الظلم، فاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً، وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً.ومن هنا قيمة هذا التجمع "أنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه، والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه. "

وقد أسهب الشيخ محمد بن عاشور[١٠] في تفسيره "التحرير والتنوير" في الحديث عن شرح الآية الكريمة رابطاً بين السياق القرآني السابق للآية والدلالة الواضحة للآية الكريمة في الخير والدعوة إليه فيقول: "وفي غريزة البشر حبّ المشاركة في الخير؛ لذلك تجد الصبي إذا رأى شيئاً أعجبه نادى من هو حوله ليراه معه".

ثم يقول: وصيغة (ولتكن منكم أمة) صيغة وجوب لأنها أصرح في الأمر من صيغة افعلوا لأنها أصلها، فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية، فالأمر لتشريع الوجوب، وإذا كان ذلك حاصلاً بينهم من قبل كما يدل عليه قوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) فالأمر لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه، وفيه زيادة الأمر بالدعوة إلى الخير وقد كان الوجوب مقرراً من قبل بآيات أخرى مثل: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)، أو بأوامر نبوية، فالأمر لتأكيد الوجوب أيضاً للدلالة على الدوام والثبات عليه، مثل:

---

(١٠) محمد الطاهر بن عاشور ــ تفسير التحرير والتنوير ــ الدار التونسية للنشر ــ ١٩٨٤م ــ الجزء الثالث ص ٣٦ إلى ص ٤٣.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ)، وكقوله تعالى: (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا)، وأصل الأمة في كلام العرب الطائفة من الناس التي تؤم قصداً واحداً: من نسب أو موطن أو دين، أو مجموع ذلك، ويتعين ما يجمعها بالإضافة أو الوصف كقولهم: أمة العرب.

ويتناول الشيخ قضية فرض الكفاية وفرض العين بأسلوبه الخاص فيقول بجواز أن تكون (من) بيانية وقُدِّم البيانُ على المبَيَّن ويكون ما صدق الأمة نفس الصحابة، وهم أهل العصر الأول من المسلمين فيكون المعنى: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير فهذه الأمة أصحاب هذا الوصف قد أمروا بأن يكونوا من مجموعهم الأمة الموصوفة بأنهم يدعون إلى الخير، والمقصود تكوين هذا الوصف؛ لأن الواجب عليهم هو التخلق بهذا الخلق، فإذا تخلقوا به تكونت الأمة المطلوبة، وهي أفضل الأمم، وهي أهل المدينة الفاضلة المنشودة للحكماء من قبل، فجاءت الآية بهذا الأمر على هذا الأسلوب البليغ الموجز.

ويجوز أيضاً، أن تكون (من) للتبعيض، والمراد من الأمة الجماعة والفريق، ويقول: على هذا يثبت حكم الوجوب على كل جيل بعدهم بطريق القياس لئلا يتعطل الهدى، ومن الناس من لا يستطيع الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: (فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ) وإن كان الخطاب بالضمير لجميع المؤمنين تبعاً لكون المخاطب بيا أيها الذين آمنوا إياهم أيضاً، كانت (مِنْ) للتبعيض لا محالة، وكان المراد بالأمة الطائفة، إذ لا يكون المؤمنون كلهم مأمورين بالدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بل يكون الواجب على الكفاية وإلى هذا المعنى ذهب ابن عطية، والطبري، ومن تبعهم، وعلى هذا فيكون المأمور جماعة غير معينة وإنما المقصود حصول هذا الفعل الذي فُرض على الأمة وقوعه.

على أن هذا الاعتبار لا يمنع من أن تكون (مَن) بيانية بمعنى أن يكونوا هم الأمة، ويكون المراد بكونهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، إقامة ذلك فيهم وأن لا يخلوا عن ذلك على حسب الحاجة، ومقدار الكفاءة للقيام بذلك، ويكون هذا جارياً على المعتاد عند العرب من وصف القبيلة بالصفات الشائعة فيها الغالبة على أفرادها كقولهم: بأهلة لئام، وعُذْرةُ عُشاق.

ثم يضيف الشيخ عاشور قائلاً: إن الدعوة إلى الخير تتفاوت: فمنها ما هو بين يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله. وهذا هو المسمى بفرض الكفاية، يعني إذا قام به بعض الناس كفى عن قيام الباقين، وتتعين الطائفة التي تقوم بها بتوفر شروط القيام بمثل ذلك الفعل فيها، كالقوة على حمل السلاح في الحرب، وكالسباحة في إنقاذ الغريق، والعلم بأمور الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك تعين العدد الذي يكفي للقيام بذلك الفعل مثل كون الجيش نصف عدد جيش العدو، ولما كان الأمر يستلزم متعلقاً فالمأمور في فرض الكفاية الفريق الذين فيهم الشروط، ومجموع أهل البلد، أو القبيلة لتنفيذ ذلك، فإذا قام به العدد الكافي ممن فيهم الشروط سقط التكليف عن الباقين، وإذا لم يقوموا به كان الإثم على البلد أو القبيلة، لسكوت جميعهم، ولتقاعس الصالحين للقيام بذلك، مع سكوتهم أيضاً. ثم إذا قام به البعض فإنما يثاب ذلك البعض خاصة.

ومعنى الدعاء إلى الخير الدعاء إلى الإسلام، وبث دعوة النبي ﷺ فإن الخير اسم يجمع خصال الإسلام، والمعروف هو ما يعرف وهو مجاز في المقبول المرضي به، لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً مقبولاً مرضياً به، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول، وفي الشرائع، وهو الحق والصلاح؛ لأن ذلك مقبول عند انتفاء العوارض.

وللمنكر مجاز في المكروه، والكره لازم للإنكار؛ لأن النكر في أصل اللسان هو الجهل ومنه تسمية غير المألوف نكره، وأريد به هنا الباطل والفساد؛ لأنهما من المكروه في الجبلة عند انتفاء العوارض.

والتعريف في (الخير ــ والمعروف ــ والمنكر) تعريف الاستغراق، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة فيشبه الاستغراق العرفي.

ومن المفسرين من عيَّن جعل (من) في قوله تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ) للبيان، وتأول الكلام بتقدير تقديم البيان على المبَيَّن فيصير المعنى: ولتكن أمة هي أنتم أي ولتكونوا أمة يدعون، محاولة للتسوية بين مضمون هذه الآية، ومضمون قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)، ومساواة معنيي الآيتين غير متعينة لجواز أن يكون المراد من خير أمة، هذه الأمة، التي قامت بالأمر بالمعروف.

والآية أوجبت أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا

شك أن الأمر والنهي من أقسام القول والكلام، فالمكلف به هو بيان المعروف، والأمر به، وبيان المنكر، والنهي عنه، وأما امتثال المأمورين والمنهيين لذلك، فموكول إليهم أو إلى ولاة الأمور الذين يحملونهم على فعل ما أمروا به، وأما ما وقع في الحديث "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه" فذلك مرتبة التغيير، والتغيير يكون باليد، ويكون بالقلب، أي تمني التغيير، وأما الأمر والنهي فلا يكونان بهما.

والمعروف والمنكر إن كانا ضروريين كان لكل مسلم أن يأمر وينهي فيهما، وإن كانا نظريين، فإنما يقوم بالأمر والنهي فيهما أهل العلم.

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط مبينة في الفقه والآداب الشرعية، إلا أن الشيخ عاشور ينبه إلى – شرط ساء فهم بعض الناس فيه – وهو قول بعض الفقهاء: يشترط أن لا يجر النهي إلى منكر أعظم، وهذا شرط قد خرم مزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتخذه المسلمون ذريعة لترك هذا الواجب، ولقد ساء فهمهم فيه، إذ مراد مشترطه أن يتحقق الآمر أن أمره يجر إلى منكر أعظم لا أن يخاف أو يتوهم إذ الوجوب قطعي لا يعارضه إلا ظن أقوى.

ولما كان تعين الكفاءة للقيام بهذا الفرض، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتوقفه على مراتب العلم بالمعروف والمنكر، ومراتب القدرة على التغيير، وإفهام الناس ذلك، رأى أئمة المسلمين تعيين ولاة للبحث عن المناكر وتعيين كيفية القيام بتغييرها، وسموا تلك الولاية بالحسبة، وقد أولى عمر بن الخطاب في هذه الولاية أم الشفاء، وأشهر من وليها في الدولة العباسية ابن عائشة، وكان رجلاً صلباً في الحق، وتسمى هذه الولاية في المغرب ولاية السوق وقد وليها في قرطبة الإمام محمد بن خالد بن مرتنيل القرطبي المعروف بالأشج من أصحاب ابن القاسم توفى سنة ٢٢٠، وكانت في الدولة الحفصية، ولاية الحسبة من الولايات النبيهة وربما ضمت إلى القضاء كما كان الحال في تونس بعد الدولة الحفصية". يقول القرطبي[١١]، في تفسير الآية الكريمة: "أن (من) في قوله (منكم)

---

(١١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ــ الجامع لأحكام القرآن ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م ــ المجلد الثاني ــ ص ١٠٦.

للتبعيض، ومعناها أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علمـــاء، وقيـــل: لبيان الجنس، لتكونوا كلكم كذلك. قلت: القول الأول أصح، فإنه يدل علـــى الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاءة، وقد عينهم الله تعالى بقوله: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة)[١٢]، وليس كل الناس مُكنُوا".

ويقول ابن كثير[١٣] في تفسير الآية الكريمة: "ولتكن منكم أمة" منتصبة للقيام بـــأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وأولئك هم المفلحـــون) قال الضحاك: هم خاصة الصحابة، وخاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء، وقال أبـــو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير)، ثم قال: "الخير اتباع القرآن وسنتي"[١٤].

والمقصود من هذه الآية تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الـــشأن، وإن كـــان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عـــن أبي هريـــرة قال، قال رسول الله ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"، وفي رواية: "وليس وراء ذلك من الإيمان حبـــة خردل".

ويروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: "والذي نفـــسي بيـــده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم"[١٥].

ويرتبط مفهوم الخير عند فريق من الفلاسفة المسلمين[١٦] بتعريف الصلاح والأصلح فالصلاح ضد الفساد، وكل ما عرى عن الفساد يسمى صلاحاً، وهو الفعل المتوجه إلى الخير من قوام العالم، وبقاء النوع عاجلاً، والمؤدي إلى السعادة السرمدية آجلاً.

---

(١٢) سورة الحج: الآية ٤١.

(١٣) مختصر تفسير ابن كثير ط٧، دار القرآن الكريم ــ بيروت، ١٤٠٢هـــ ــ ١٩٨١م ــ ص ٣٠٦.

(١٤) أخرجه ابن مردويه.

(١٥) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(١٦) البير نصري ــ فلسفة المعتزلة ــ الجزء الأول ــ ص ٨٠.

أما الأصلح فهو إذا كان هناك صلاحان وخيران، وكان أحدهما أقرب إلى الخير المطلق فهو الأصلح، ولما كان كل شيء في الطبيعة متجهاً نحو الصلاح العام، ولما كان الصلاح العام هو غاية الخلق فيمكن أن نقول أيضاً أنه صورة من الخير المطلق.

كما يرتبط مفهوم الخير عند فريق من الفلاسفة المسلمين بالشرع، فالقبيح ما قبحه الشرع، والحسن ما أثنى الشرع على فاعله.

والخلاف التقليدي في الفلسفة الإسلامية بين الأشاعرة والمعتزلة في تفسير الإرادة الإنسانية لا يصرفنا عن جوهر إرادة الخير إسلامياً، أي كسب الخير واكتسابه.

ويرى بعض الباحثين[17] أن الكسب قد وقع في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

١ عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[18]، أي بما عزمتم عليه وقصدتموه.

٢ كسب المال من التجارة والزراعة.

٣ السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[19].

إذن فمقصود القرآن بالكسب هو الإرادة والعزم والسعي والعمل.

وتمثل الوصايا العشر التي ورد ذكرها في التوراة، وجاءت في أواخر سورة الأنعام في القرآن الكريم قاسماً مشتركاً لمعنى الخير في الديانات المعاصرة اليهودية والمسيحية والإسلام.

في الإصحاح العشرين من سفر الخروج في التوراة نجد الوصايا التالية: "أنا الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك. أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. أكرم أباك وأمك

---

(١٧) مجدي محمد رياض ــ الفلسفة الخلقية عند الأشاعرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٩٣م ص ٦٩، ص ٧٠.

(١٨) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

(١٩) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك"[٢٠].

ولقد تناول البابا شنودة الثالث تفسير الوصايا العشر تفسيراً مسيحياً بكثير من الوعظ حتى أن العنوان الذي طبعت به محاضرات البابا شنودة الثالث اتخذ ترجمة إنجليزية بعنوان: (The Ten Commandments in The Christian Understanding)، ويستشهد البابا شنودة بما ورد في الإنجيل من أن الوصايا العشر لم تكن خاصة بزمن موسى النبي، ولا بالعهد القديم (التوراة) فقط، إنما هي خاصة بكل جيل؛ لأن الأرض والسماء تزولان، وحرف واحد من وصايا الله لا يزول (متى ٥: ١٨).

إنما المسيحية أعطت الوصايا العشر مفهوماً خاصاً، يتفق مع السمو الذي فهمه المؤمنون في العهد الجديد (الإنجيل)، وبقيت الوصايا ثابتة، ولكن مفهومها يتسع، حسبما يمنح الله بنعمته مجالاً للتأمل، وما أصدق قول داود النبي: لكل كمال رأيت منتهى، أما وصاياك فواسعة جداً" (مز ١٨: ٩٦). ويقول البابا شنودة أن رقم (١٠) يرمز إلى الكمال، لذلك فالوصايا العشر ــ مع أنها عشر حرفياً ــ إلا أنها ترمز للناموس كله، أي إلى جميع الوصايا، ويقدمها البابا شنودة بتفسير وشرح مصحوب بالوعظ المسيحي، ويميل إلى التوسع في ضرب الأمثال للاعتبار والنصح، وهي على النحو التالي:

الوصية الأولى	:	أنا الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا تكن لك آلهة أخرى أمامي.
الوصية الثانية	:	لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، ومما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن.
الوصية الثالثة	:	لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً.
الوصية الرابعة	:	اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك.

---

(٢٠) الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ــ وقد ترجم إلى العربية ــ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ــ خروج ١٩، ٢٠ ــ ٢٠، ٢١.

الوصية الخامسة : اكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض الذي يعطيك الرب إلهك.

الوصية السادسة : لا تقتل.

الوصية السابعة : لا تزن.

الوصية الثامنة : لا تسرق.

الوصية التاسعة : لا تشهد على قريبك شهادة زور.

الوصية العاشرة : لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك، ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك.

بهذا الترتيب وما صاحبه من شرح وتفسير بلغ أكثر من مائتي صفحة من قطع الكتاب قدم البابا المصري[٢١] الرؤية المسيحية والمعاصرة للوصايا العشر التي وردت في التوراة.

وفي أواخر سورة الأنعام من القرآن الكريم، نقرأ قول الله تعالى:

(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بطن ولا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلاَ تقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وصَّاكُم به لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ** وأن هذا [٢٢].

---

(٢١) البابا شنودة الثالث ــ الوصايا العشر ــ الطبعة السابعة ــ مطبعة الأنبا رويس بالعباسية ــ القاهرة ــ ١٩٨٩م

(٢٢) سورة الأنعام: الآية ١٥١: ١٥٣.

ولست مؤهلاً لتفسير القرآن الكريم، كما أن كتابه آيات القرآن لا تكتب إلا على الوجه الوارد في المصاحف، ولكن لأن القرآن مأدبة الرحمن فإنني في مجال التوضيح أحاول أن أبين من النص القرآني الوصايا العشر الواردة في الآيات ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام على النحو التالي:

(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

١ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً

٢ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }الأنعام١٥١

٣ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

٤ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

٥ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الآية: ١٥١).

٦ (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

٧ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا

٨ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

٩ وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ

ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الآية: ١٥٢).

(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الآية: ١٥٣).

وعندما نتحدث عن الوصايا العشر كما وردت في التوراة التي بين أيدينا اليوم باعتبار هذه الوصايا تحض على الخير، وباعتبارها تمثل إطاراً للخير، لا نغفل الفهم اليهودي لها فيما بعد سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ ولا نغفل الرؤية النقدية للتحريف اليهودي لمعاني الوصايا وقصرها عليهم، واستحلال واستباحة الغير.

وقد قدم رجائي عطية[٢٣] رؤية نقدية وتحليلية ودراسة مقارنة لفهم اليهود وفهم المسيحيين للوصايا فيقول: "تحتل الوصايا العشر، صدارة الخطاب الديني اليهودي، وتكاد تكون على شهرتها دستوراً للشريعة اليهودية، ثم يشير إلى فهم اليهود لربط النواحي بما يخص ذوي القربى وبذلك أدارت الوصايا ظهورها للأغيار.. أن النظر في الصيغ التوراتية الثلاث للوصايا العشر، بسفرى الخروج والتثنية، نظراً مغرق في مجافاة الأغيار، يربط الحماية والرعاية ويقصرها على "القريب" دون سواه، فتحريم الشهادة الزور أو اشتهاء زوجة الغير أو ممتلكاته أو كل ما يخصه لا يكون إلا بالنسبة "للقريب" مما يعطي انطباعاً ـ بمفهوم المخالفة ـ أنه لا عناية ولا احتفاء ولا حماية "لغير القريب"!!! يتأكد هذا المنظور العرقي اللافظ للأغيار، بما ورد عن طرد الأغيار والتهيئة لنيل أراضيهم، وتحريم قطع العهد معهم، بل وهدم وتدمير ممتلكاتهم، وتحريم الزواج من بناتهم؟!

ومع أن العقيدة المسيحية تدرج العهد القديم في شطري الكتاب المقدس، أن دعوة المسيح تكمل ولا تناقض الناموس اليهودي، إلا أنها لم تساير هذا المنظور في صياغتها للوصايا المقابلة الواردة في الأناجيل، فحذفت منها جميعاً "شرط القرابة" كشرط لإعمال وتطبيق الوصية.. في إنجيل لوقا ١٨: ١٨ ـ ٢٠ حين سئل السيد المسيح عن العمل الصالح، قال: "أنت تعرف الوصايا، لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد الزور، أكرم أباك وأمك" ولنفس هذه الصياغة يحصر اللفظ، في إنجيل مرقص ١٠: ١٩، وهو ما ورد بإنجيل متى ١٩: ١٨، ١٩ الذي لم يضف إلى هذه الوصايا ـ التي خلت من شرط "القرابة" ـ إلا وصية "أحب قريبك كنفسك" ومغزاها أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وعلى مثل ذلك جرت رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣: ٨ ـ ١٠، فحذفت هي الأخرى "شرط القرابة" من الوصايا، وبذلك التفتت المسيحية إلى غلط ومحاذير ربط الوصايا بالقرابات، لأنه ربط يصدر عن مفهوم عرقي لم تقبله المسيحية؟

ويزيد رجائي عطية فكرة الانغلاق في التفسير اليهودي بعد موسى ـ عليه السلام ـ للوصايا وضوحاً بمقارنتها بما يقابلها في الإسلام، فيقول: تتجلى المجافاة للأغيار في

---

(٢٣) رجائي عطية ـ الأديان والغير، ماذا قال العهد القديم والتلمود ـ جريدة الأهرام ـ ١٢-٣-٢٠٠٤م

الفهم اليهودي للوصايا حين تقارن بما يقابلها في القرآن. لا يربط القرآن صدق الشهادة والتحذير من الكذب فيها — بأن تكون لقريب، فالشهادة في ديانة الإسلام واجبة لله والحق (وأقيموا الشهادة لله)[٢٤]، الشهادة التي تكون لله، لابد أن تكون شهادة صدق وعدل، لا يعلق هذا الواجب على أي شرط، بل ولا ينبغي أن يحول دون الصدق فيها أن تقع على قريب، أو حتى على النفس، حق "الغير" هو المقدم في الشهادة لإعلاء العدل والإنصاف، لا يرضى الإسلام للشاهد إلا أن يكون عادلاً في شهادته، ولا يعذره في ذلك عذر مهما بلغ، لا شنأن الخصم يعذره، ولا قرابة القريب تعفيه، ولا كون المشهود عليه يمسه هو شخصياً أو يمس أحد ذوي قرباه، في القرآن المجيد: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)[٢٥]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)[٢٦]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[٢٧].

برغم صحة التحليل والنقد الذي قدمه رجائي عطية وغيره في الرؤية اليهودية المغايرة لعموم الخير في تفسير الوصايا، وبرغم ذلك كله فإن الحقيقة المؤكدة أن الوصايا تمثل إطاراً لمعنى الخير، والتفسير المسيحي لها يضبط المعنى ويوسعه.

ومن اللافت للنظر أن الشرائع القديمة والديانات القديمة غير السماوية تقترب في تعاليمها من إطار الخير. ففي تعاليم البوذية نجد أن المعاناة التي تكدر حياة الناس وتسبب متاعبهم وآلامهم وأحزانهم سببها تعلقهم بالأشياء، ولا يكفون عن ذلك حتى يصبحوا أخيراً عبيداً للأشياء، فالرغبة في التملك تعوق الإنسان من امتلاك ناصية المعرفة ونفاذ البصيرة، وعلى البوذي أن يتبع الآتي:

١ الحب.. بأن ينمي البوذي في قلبه الحب وإخلاء قلبه من الكراهية، وعليه أن يفكر في الناس بالحب والإحسان والكرم.

٢ لا يقترف إثم القتل.

---

(٢٤) سورة الطلاق: الآية ٢.

(٢٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٢٦) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٢٧) سورة المائدة: الآية ٨.

٣ لا يسرق.

٤ لا يكذب.

٥ لا يتحايل.

٦ لا يتناول المشروبات القوية (الخمر وأمثالها).

٧ كبح النفس الذاتي.

٨ التواضع.

٩ الأريحية.

١٠ الكرم.

١١ الرحمة

والتفسير المسيحي لمعنى الخير يقدمه البابا شنودة الثالث متسائلاً: ما هو الخير؟ ويمهد للتعريف بقوله: كلنا نؤمن بالخير، ونريد أن نعمل الخير، ولكننا نختلف فيما بيننا في معنى الخير وفي طريقته، وما يظنه أحدنا خيراً قد لا يراه غيره كذلك! فما هو الخير؟ وما هي مقاييسه؟ لكي نحكم على أي عمل بأنه خير: ينبغي أن يكون هذا العمل خيراً في ذاته، وخيراً في وسيلته، وخيراً في هدفه، وبقدر الإمكان يكون خيراً في نتائجه. ثم يقول: إن كلام الله هو الحق الخالص، والخير الخالص، ولكن تفسير الناس لكلام الله، قد يكون شيئاً آخر!. إن كلام الله يحتاج إلى ضمير حي حتى يفهمه، وإلى قلب نقي يدركه. ثم يصل البابا شنودة إلى إجابة السؤال: ما هو الخير؟ ويجيب: الخير أن ترتفع فوق ذاتك ولذاتك، وأن تطلب الحق أينما وجد، وتثبت فيه، وتحتمل لأجله: الخير هو النقاء والقداسة والكمال. ويضيف بأن الخير ليس عملاً مفرداً أو طارئاً، إنما هو حياة، ثم يقول: حينما نتكلم عن الخير، إنما نقصده بمعناه النسبي، أي بالنسبة إلى ما نستطيع إدراكه من الخير، وما نستطيع عمله من الخير.. أي الخير بقدر فهمنا البشري له وبقدر الطاقة المحدودة في ممارسته، والإنسان الخير يعمل باستمرار على توسيع طاقاته في عمل الخير، والخير كالماء، دائماً يمشي، ولا يقف فإن وقف، أصابه الركود، والخير يريدك أن تتعب من أجل إتمامه ولا تلجأ إلى الحلول السهلة الخاطئة[٢٨].

---

(٢٨) البابا شنودة الثالث (رئيس الكنيسة القبطية المصرية) ــ ما هو الخير؟ جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٥-١١-٢٠٠٣م، وبتاريخ ٢-١٢-٢٠٠٣م

وإذا رجعنا إلى الفكر الإسلامي في معالجة معنى الخير فإن ابن مسكوية[٢٩] في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" منذ ألف عام يقول: إن الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان، ومن أجلها خلق، والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه، أو كسله وانصرافه، ويقول إن الواجب الذي لا مريه فيه أن نحرص على الخيرات التي هي كمالنا، والتي من أجلها خلقنا، ونجتهد في الوصول إلى الانتهاء إليها، ونتجنب الشرور التي تعوقنا عنها، وتنقص حظنا منها. ويذهب ابن مسكوية إلى القول بالمفهوم الاجتماعي للخير في لغتنا المعاصرة فيقول: "ولما كانت هذه الخيرات الإنسانية وملكاتها، التي في النفس كثيرة، ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها: وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم، لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له، فتكون الخيرات مشتركة". وقد بيَّن ابن مسكويه منذ ألف عام سمات الإنسان الخير وتحدث الدكتور عبد الستار إبراهيم في كتابه: "الحكمة الضائعة" الذي نشرته سلسلة عالم المعرفة بالكويت في إبريل ٢٠٠٢م عن سمات الإنسان المبدع من خلال البحوث التي أجريت في هذا الشأن. والمقارنة بين السمات التي وضعها ابن مسكويه للإنسان الخير والسمات التي ذكرها الدكتور عبد الستار إبراهيم عن الإنسان المبدع تستحق النظر وتدل على القواسم المشتركة لسمات الخير في الإنسان بصفة عامة. فيورد ابن مسكويه الصفات الدالة على فضائل الإنسان فيما يلي:

١ الحكمة: وتشمل الذكاء، والتعقل، وسرعة الفهم وقوته، وصفاء الذهن، وشمول التعلم.

٢ الشجاعة: وتشمل كبر النفس، النجدة، عظم الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، احتمال الكيد.

٣ العدالة: وتشمل الصداقة، الألفة، صلة الرحم، المكافأة، حسن الشركة، حسن القضاء، التودد، ترك الحقد، استعمال اللطف وغير ذلك.

٤ العفة: وتشمل الحياء، الروعة، الصبر، السخاء، الحرية، القناعة، الدماثة، الانتظام، حسن الهدى، المسالمة، الوقار، الورع.

٥ السخاء: وتشمل الكرم، الإيثار، المواساة، السماحة.

---

(٢٩) ابن مسكويه ــ (المتوفى عام ٤٢١هـ) ــ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (حقيقة وشرح غريبة ابن الخطيب) ــ ط ١ ــ المطبعة المصرية ومكتبتها ــ القاهرة ــ (د.ت).

ويورد الدكتور عبد الستار إبراهيم في كتابه "الحكمة الضائعة"[٣٠] السمات الشخصية التي تميز المبدعين قائلاً: بفضل حركة القياس النفسي تمكن علماء النفس من معرفة الخصائص الشخصية والسمات المزاجية التي تميز المرتفعين على مقاييس الإبداع والأصالة، والحقيقة أن البحوث التي أجريت للتعرف على هذه الخصائص متنوعة وتزيد على المئات، ولحسن الحظ فإنها أجريت في مناطق مختلفة من العالم بما في ذلك مصر والعالم العربي، ويمكن القول إن بحوث الشخصية والإبداع تتجه إلى إثبات عدد من السمات تميز المبدعين نذكر منها ما يأتي:

الشجاعة الأدبية	الإحساس بالجمال	حب الاستطلاع
الصراحة	النفور من القمع	حب السؤال
النقد البناء	الدقة	حب الوحدة
الرغبة في التفوق	المهاودة	استقلال الحكم
الوعي	الوداعة	استقلال التفكير
التصميم	الفردية	تبني قيم مختلفة
الحدس القوي	السخط	تفضيل الأفكار المركبة
انخفاض الميول العدوانية	الجرأة	التحفظ
النشاط	تأكيد الذات	رفض الكبت والميل للانطلاق
المبادأة	المرح والميل للفكاهة	الحساسية
الإحساس القدري	السيطرة (ولكن دون تسلط)	القدرة على الوصول للأهداف البعيدة
عدم الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة	الميل للتأمل	البحث عن الأخطاء
عدم المجاراة	تقدير الذات	عدم الخوف من الاختلاف
المثابرة	الجدية	راديكالي(أي تبني الحلول الجذرية اللاتقليدية)

(٣٠) العدد ٢٨ من سلسلة عالم المعرفة بالكويت.

الوعي بالحاجات الشخصية	تجنب الصراع لمجرد الصراع	الإخلاص والتفاني
الشخصية	الانشغال العميق بالمشكلة	الثقة بالنفس
تقلب المزاج	حب المخاطرة	الاكتفاء الذاتي
الرقة	قوة الوجدان	العناد
الوعي بالآخرين	الانجذاب للأشياء الصعبة	استهجان القوة
تقبل الغموض.		

وأمهات الأخلاق وأصولها عند الإمام الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥هـ) في كتابه إحياء علوم الدين أربعة: الحكمة، العدل، الشجاعة، العفة. وهو يعني بالحكمة إدراك الصواب والخطأ. ويعني بالعدل: قوة السيطرة على الغضب والشهوة والالتزام بالحكمة. ويعني بالشجاعة: أن تكون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ويعني بالعفة: تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع. يقول الإمام الغزالي في كتابه المشهور إحياء علوم الدين: "إن قوة العلم يقوم حسنها وصلاحها على إدراك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة التي قال الله فيها: (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً). وخلاصة القول في معنى الخير أن اجتهادات البشرية منذ وجودها على الأرض حتى يومنا الحاضر واليوم الآتي تتفق على القواسم المشتركة للمعنى. وكلما جنحت أمة عن هذه القواسم كان خروجها وجنوحها وبالاً عليها في الأمد الطويل. وأن الشعار الذي توارثته كتب الفلسفة والفنون بأنها تسعى إلى الحق والخير والجمال لا يزال شعاراً منسجماً مع نزوع الإنسان نحو الإنصاف مع نفسه ومع غيره من خلق الله.

المحـــور الثاني
ما العقيدة، وما الدعوة، وما الحضارة، وما الثقافة؟

يعنينا في المقام الأول تعريف الدعوة، ولكن تعريف الدعوة لابد أن يسبقه تعريف العقيدة ويلحق به تعريف الحضارة والثقافة، فما هو مفهوم العقيدة؟

العقيدة:

العقيدة الإسلامية: هي المجال والبحوث التي تتعلق بالإلهيات كصفات الله، أي ما يجب في حق الله وما يستحيل، والنبوات مثل صفات الأنبياء وخلق الأنبياء، والسمعيات أي ما سمع به كالملائكة وعذاب القبر والنار ويوم الحساب.

أي أن العقيدة الإسلامية هي الجانب الغيبي والمستوى الفلسفي الميتافيزيقي (ما وراء الطبيعة الحسية) في الإسلام، وإذا جاز لي أن أضيف في وصف العقيدة الإسلامية إلى ما سبق فإنني أرى أنها عقيدة اعتمدت على شمولية البعدين الزماني والمكاني، وعلى وسطية الحل للمشكلة الإنسانية، فالمسلم مؤمن بالله الواحد ومصدق للأنبياء والرسل من آدم إلى محمد مروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكافة الأنبياء والرسل، واتباع كل نبي وكل رسول منذ خلق الله الإنسان إلى كل يوم معاصر هم أشقاء العقيدة عند المسلم. هذه هي شمولية البعد الزماني، وفي البعد المكاني نجد الأرض كلها بمعنى السكان هي مجال العقيدة الإسلامية، فليست لسكان مكان دون مكان ولا لجنس ولا لون دون لون، وليست لذكر دون أنثى أو العكس وإنما مجالها الكرة الأرضية جميعها.

ولذلك فالكرة الأرضية عند المسلمين مسجد تجوز في أي مكان منها الصلاة، وفي الحل الإسلامي للمشكلة الإنسانية نجد أن الوسطية هي العماد الذي ارتكز عليه هذا الحل، والمشكلة الإنسانية هي المادة والروح، هل نشبع حواسنا وشهواتنا وندع الروح والآخرة، والحياة التي بعد الموت؟ أم نحبط شهواتنا ونقمع مطالب الجسد بالرهبنة وشدة التسامح، ونتجه تماماً إلى الآخرة وحدها؟ لقد ارتكزت العقيدة الإسلامية على وسطية الحل بابتغاء الآخرة وعدم نسيان النصيب العادل من الدنيا ومتاعها. هذه الثلاثية وهي شمولية البعد الزماني أي التاريخي لعبادة الله وحده أولاً، وشمولية البعد المكاني حيث أن الأرض كلها مسجد ثانياً، والوسطية بين إشباع مطالب الجسد وإشباع مطالب الروح ثالثاً، هذه الثلاثية هي وصف للعقيدة الإسلامية.

والجانب التطبيقي للعقيدة الإسلامية هو الشريعة؛ لذلك كان الشعار الإسلامي المعروف في مصر في منتصف القرن العشرين الميلادي الإسلام عقيدة وشريعة ودين ودولة، فالشريعة هي تطبيق العقيدة في صورة قوانين ومعاملات وحقوق وواجبات بين الفرد والفرد، والفرد والأسرة، والفرد والمجتمع، والفرد والعالم.

وجوهر العقيدة الإسلامية هو التوحيد الخالص؛ لذلك كان لابد وأن تنعكس فكرة التوحيد الخالص على الشريعة، فالولاء والطاعة لما أمر الله به، وضمن أوامر الله طاعة الحاكم الذي يحكم بشريعة الله، حتى لا يتفرق الناس أو يتشتتوا، والنقطة الجوهرية في الفكر الإسلامي ــ فيما أري ــ أن طاعة الحاكم الذي يحكم بشريعة الله ليست امتداداً للطاعة لله، وإنما هي أمر من أوامر الطاعة العديدة التي أمر بها الله، وحجتي في ذلك أن طاعة الله مطلقة وبدون أسباب، فبعضها لا يدرك العقل البشري أسبابه، أما طاعة الحاكم الذي يحكم بشريعة الله فهي محدودة بحدود الشريعة ذاتها، وخروجه عنها يوجب أشياء كثيرة منها عصيانه وتقويمه ومقاومته.

وفي الشريعة يوضح للمسلم تفاصيل واجباته وحقوقه وعباداته مع بيانها العقلي والمنطقي، وتبرز الاجتهادات التي تجيب على كل تطور، وتنبع من مصدر واحد هو العقيدة ونبعها الذي لا ينضب القرآن الكريم.

وفي "علم الكلام" أو "علم التوحيد" حوار ومناظرات ومجادلات بين علماء الدين المسلمين أو رجال علوم الدين[٣١] الإسلامي بمعنى أدق وأصوب، حول المباحث المختلفة المتعلقة بالعقيدة وقد رأى فيها كثير من الباحثين شقاقاً ومهاترات، ولكني وجدت فيها بحكم توالى السنين وبعد عصري عن العصور التي خرجت فيها وظروفها السياسية، وجدت فيها ثروة عقلية وفلسفية برغم ما فجرته في زمانها والأزمنة التي تميزت بالضعف العقلي والنفسي من خلاف وشجار وتشتت، والمعاملات في الشريعة الإسلامية اعتراف

---

(٣١) ليس في الإسلام كهنوت؛ لذلك لا يوجد نظرياً ما يمكن أن نسميه في الإسلام رجل الدين، ولكن بما أن الدين الإسلامي يحوي حقولاً عديدة من العلوم ولابد من التخصص فيها ومن شروط الإجادة فيها أن يلم الباحث بأصولها؛ لذلك نرى ما يراه بعض المعاصرين من أن التسمية الأوفى هي رجال علوم الدين الإسلامي وهم الفقهاء في التعبير القديم.

بحكم الله، وتطبيقها يعني الاقتناع بعدل الله الذي هو جزء من العقيدة، والعبادات في الإسلام ليست مجرد طقوس تعبر عن الطاعة، وإنما هي في جوهرها الوسيلة الرئيسة لليقظة العقلية والنفسية والوسيلة الرئيسية للمحافظة على جوهر العقيدة ملتمعاً في عقل الإنسان وقلبه، فالصلاة مثلاً في المرات الخمس لا تستغرق نصف ساعة في جملتها، والوضوء خمس مرات لا يزيد عن عشر دقائق في جملته ولكن الانشغال بمواقيتها والانشغال بتأديتها هو العبء الحقيقي في أدائها وهو المطلوب لتبقى جذوة الإيمان مُتَّقدة "إذ قَبِل الذي يدخل في الإسلام عقيدة التوحيد وتعلمها لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس: النطق بالشهادتين، وإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام. والمسلمون يعنون بتلك الفرائض وبما بجانبها من الشعائر الدينية دون أن يثقلوا بها كواهلهم أو تجعلهم مغمورين في الحياة، وتجد أركان العقيدة الإسلامية تعبيراً ظاهراً في حياة المؤمن، وتجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيراً ظاهراً في حياة المؤمن، ومن ثم تجدها أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكاً لا سبيل إلى الفكاك منه، وتجعل المسلم الفرد إماماً ومعلماً لعقيدته[٣٢].

هذا النظر في جوهر العقيدة، وهذه المحاولة لرؤية موقعها في الحياة العقلية الإسلامية مدخل طبيعي للنظر في تعريف الدعوة.

الدعـــــوة:

الدعوة الإسلامية هي الجانب التبشيري بالعقيدة وهي تكاد توازي مفهوم الإعلام؛ لأن الدعوة هي الإعلام بالإسلام والتعريف به، وهذا العمل هو فرض الكفاية في الفقه الإسلامي الذي إذا لم يقمْ به نفر من المسلمين أثموا جميعاً. والدعوة جزء من الإعلام الإسلامي أو هي الجزء الأيدلوجي (العقائدي) فيه، علماً بأن الدعوة لا تشمل وسائل الإعلام فحسب، بل تشمل القدوة الحسنة والإجراءات الاقتصادية المشابهة لدعم المؤلفة

---

(٣٢) توماس أرنولد ــ الدعوة إلى السلام (ترجمة د. حسن إبراهيم و د. عبد المجيد عابدين وإسماعيل البحراوي) ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٧٠م ــ صفحة ٤٥٦ ــ ٤٦٠.

قلوبهم وما شابه ذلك. وليس في قولنا: بأن الدعوة إلى الإسلام جزء من الإعلام الإسلامي تضخيم للإعلام الإسلامي أو تصغير للدعوة الإسلامية، ولكن شبيه بهذا الموقف قولنا: بأن العلاقات العامة تستخدم كافة وسائل الإعلام لتحقيق أهدافها، إلى جانب الاتصال الشخصي والحلول الإدارية وتنظيم الحفلات والإقامة وما شابه ذلك. برغم أن علم العلاقات العامة جزء من علم الإعلام، وأن التخصص في العلاقات العامة فرع من الإعلام وهو الأصل.

ويعد تعبير الدعوة أكثر التعبيرات استخداماً في حياتنا المعاصرة، فالكليات الجديدة التي تنشأ في الجامعات الإسلامية تحمل اسم الدعوة، والبحوث والكتب التي تتناول هذا العنوان أكثر من تعبيرات الحضارة أو الفكر أو الثقافة أو الإعلام، ولكن الأمانة العلمية تقضي الاعتراف بأن هذا الشيوع لا يقدم تعريفاً محدداً أو مصطلحاً علمياً دقيقاً للدعوة، ومن باب التسجيل نشير إلى أهم المعالجات لتعبير الدعوة. يبدأ الشيخ محمد الغزالي كتابه (مع الله ــ دراسة في الدعوة والدعاة) بعنوان التعريف بالدعوة، فيعرض صوراً لاهتمامات الناس الدنيوية ناسين أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ خلقهم لحكمة، وفي غمرة هذه الدنيا الفاتنة يرتفع صوت النبوة لينبه الناس إلى ماسهوا عنه، ويحذرهم مما انخدعوا به، ويصل الشيخ إلى القول بأن الله سبحانه وتعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ليعرفوا جماهير البشرية بالله، ثم يمضي إلى القول بأنه لما كان البشر خطاءين بطبيعتهم وكانت أهواؤهم تغلب على أحوالهم فإن نقلهم إلى الصواب، وتثبيتهم عليه، يحتاج إلى جهد متصل ودعوة مستمرة، ثم يستعرض آيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[٣٣]. (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)[٣٤]. (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ)[٣٥]. (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)[٣٦].

---

(٣٣) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٣٤) سورة الشورى: الآية ١٥.

(٣٥) سورة الحج: الآية ٦٧.

(٣٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ)[٣٧].

ثم يقول[٣٨]: "إن الدعوة إلى الله ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة، إنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين". ويشرح مفهومه لمعنى الدعوة إلى الله بتصوره للمفهوم التاريخي لإرسال الله تبارك وتعالى للرسل إلى الأمم المتعاقبة ويشرح سمات الدعوة إلى الله في الوضوح والصدق ومخاطبة العقل. بل العقل السليم، وبهذا نرى أن مفهوم الدعوة كما رآه الشيخ الغزالي يعتمد على النظرة التاريخية الشاملة لجهود الرسل في التوحيد، ثم يعتمد على سمات الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد بصفة عامة.

أما أستاذنا الدكتور عبد اللطيف حمزة ــ رحمه الله ــ فقد جعل اصطلاح الدعوة في عصر النبوة مساوياً تماماً لاصطلاح الإعلام في عصرنا هذا، وهو يقول[٣٩] في ذلك: "كان القدماء منذ ظهور الرسول لا يعرفون هذا المصطلح الحديث، مصطلح الإعلام والاتصال بأنواعه الثلاثة: الشخصي والجمعي والجماهيري، واستخدموا مكانه المصطلح المعروف عندهم وهو مصطلح الدعوة، والدعوة إلى شيء هي الترغيب في هذا الشيء، أو بمعنى آخر الدعاية له، ونحن لا نسيء إلى الدين إذا قلنا: أن العمل الذي قام به الرسول الكريم من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية في ذاتها لها معنيان على الأقل: الدعاية الطيبة أو البيضاء، والدعاية الخبيثة أو السوداء، ونحن نعلم علم اليقين أن الرسول ﷺ كان مسئولاً أمام ربه عن عمل واحد فقط هو الإعلام أو التبليغ".

---

(٣٧) سورة فصلت: الآية ٣٢.

(٣٨) محمد الغزالي ــ مع الله دراسة في الدعوة والدعاة ــ الطبعة الرابعة ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٧٦ ــ ص ٣٧.

(٣٩) دكتور عبد اللطيف حمزة ــ الإعلام في صدر الإسلام ــ الطبعة الثانية ــ دار الفكر العربي ــ ١٩٧٨ ص ١٠٤

ولكن الدكتور حمزة لا يسكت عند هذا الحد فهو يفصل رأيه[٤٠] في تعريف الدعوة بأنها الجهود التي يبذلها أصحاب الأفكار الجديدة أو العقائد الجديدة أو المذاهب الجديدة، ومن أعظم الأمثلة عليها الدعوة التي أتى الرسول ﷺ لنشرها وهي دعوة الإسلام، ثم يفرق بين هذا التعريف.. تعريف الدعوة وبين الإعلام بأن الإعلام هو الجهود التي يبذلها الناس لتأييد هذه الأفكار أو العقائد أو المذاهب، ويقول إن الاتصال في الإسلام مر بهذه الأطوار الثلاثة: الأول: طور الدعوة الإسلامية، وهو خاص بحياة النبي ﷺ، وبه سميت جميع الجهود التي بذلها في سبيل هذا الدين الجديد.

الثاني: طور الإعلام وبه سميت معظم الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون، وهم الذين كانت حياتهم في جملتها صورة من حياة الرسول، أو على الأقل حرصوا كل الحرص على أن تكون حياتهم كذلك.

الثالث: طور الدعاية، وعليه قامت الخلافة الإسلامية الأموية إلى يومنا هذا".

في هذا التصنيف الذي أورده أستاذنا الدكتور عبد اللطيف حمزة نجد عاطفة نبيلة تجاه التاريخ الإسلامي، ولكننا لا نحصل على تعريف بالمعنى الدقيق لمفهوم الدعوة.

يقول الدكتور رؤوف شلبي[٤١] في مجال تحديد مفهوم الدعوة الإسلامية: إنها في التصور العادي البسيط ليست مبادئ بيئة خاصة، وليست ظاهرة اجتماعية لظروف خاصة، وهي ليست مجرد مثل عليا فقط لجماعة مثالية من البشر، ولا هي دعوة مادية لإيواء المشردين، وإشباع الجائعين، وكساء العرايا. وإنما هي شيء غير ذلك.

ثم يستعرض آراء لفيف من المؤلفين في تعريف الدعوة، فالدعوة عند الشيخ علي محفوظ هي حياة الأديان، أي أنها حركة التبليغ بالدين، وهو يصل إلى ذلك مباشرة من تحليل معنى الدعوة من الدعاء إلى الشيء، أي الحث على قصده، أما تعريف محمد الراوي للدعوة فهو خلط بين الدعوة كحركة لبناء الدين عملياً، وبين الدين كضوابط للسلوك البشري تنزل بها الوحي، وبذلك جعل الراوي مفهوم الدعوة مرادفاً لمفهوم الدين.

---

(٤٠) المرجع السابق ــ ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤١) دكتور رؤوف شلبي ــ الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها ــ من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ــ القاهرة ١٩٧٤م ــ ص٢٠ إلى ص ٣٦.

ثم يشرح الدكتور رؤوف شلبي رفضه لمنطق اليونان وللفلسفة العقلية، ويقول إنه من الوهن في العقيدة أن يرجع في أبحاث إسلامية لا سيما في الدعوة الإسلامية إلى أي مرجع غير دستورها الأصيل الخالد: القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبذلك يرحب بتعريف البهي الخولي للدعوة بأنها نقل الأمة من محيط إلى محيط.

ثم يخلص بعد ذلك إلى تعريف الدعوة بأنها عملية إحياء لنظام ما لتنقل الأمة بها من محيط إلى محيط، والدعوة الإسلامية على هذا حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم، هذا النظام الإلهي قد اتخذ له مجرى في الحياة الإنسانية فكان له: تاريخ يحفظ للدعوة منهاجاً، ودعاة حملوها للناس بمنهاجها الفاصل، وكان لها غايات حققت بها للبشر حياة ربانية.

ويصف بعد ذلك اكتمال الدعوة ببناء دولة الإسلام وما واجهها من خصومات، ويحدد المفهوم الذي يتصور ويراه لائقاً بتاريخ الوجود الإسلامي فيما يلي:

أولاً: جانب الدعوة في مبادئ النظام الإلهي الذي بعث به سيدنا محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله، وأساس هذا الجانب في التصور هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وملخص هذا الجانب إحياء الإسلام وبعثه في أصوله الثقافية النظرية والوصول به إلى سلوك عمل أخلاقي في الحركة والعمل والتعايش الإنساني، ومهمة هذا الجانب عرض الدعوة كفكرة، وتطبيقها كسلوك، وتحتاج هذه المهمة إلى منهاج يستخدم في العرض، وتحتاج كذلك إلى غاية تكون مقياساً صحيحاً لمجال التطبيق ومداه، كما تحتاج إلى داعية يتشرف بالاضطلاع بأعباء العمل في سبيل الله.

ثانياً: جانب الدعوة في لقائها مع الخصوم، الخصوم التاريخيين الذين التقوا بها في حروب الصليب، وكان من نتائجها: الاستعمار العسكري، والصهيونية العالمية ويهودها، الخصوم الفكريين الذين يجابهون الدعوة الإسلامية بمناهج ومبادئ عقيدة ضالة مثل الشيوعية وأسرتها، والوجودية وإخوتها، والمبادئ الوضعية بتمامها: (القاديانية- البهائية - البابية - النصيرية... الخ). ثم بعد ذلك يحدد الدكتور رؤوف شلبي الهدف المنوط بالدعوة في بعث الوجود الإسلامي لتعود الدولة الأستاذة، ثم يبين المراد من اصطلاح الدعوة الإسلامية في نقطتين: الأولى: الحركة التنفيذية للمبادئ الإسلامية القائمة على أساس من القرآن الكريم والسنة المطهرة، هذه الحركة تتخذ لها منهاجاً، وغاية، وداعية

هذا الداعي ينبغي أن يكون ربانياً يرتفع بالعمل فوق كل الآمال والآلام، وهذا الدور هو دور البناء، دور العرض والتطبيق وهو باختصار دور المناهج والغايات. النقطة الثانية: بعد أن تكتمل للدعوة مقوماتها في دولتها تحتاج ثمارها هذه إلى صيانة ودفاع تجاه محاولات الخصوم والمجابهين، وهذا هو دور الدفاع والمناصرة، وهو باختصار دور مجابهة الخصوم. هذا التعريف الطويل يتلخص في المفهوم السياسي للدعوة، وهو يقترب من الإجراءات أكثر من اقترابه إلى التخطيط، ولكنه لا يخرج عن المفهوم السياسي للدعوة.

والدكتور عمارة نجيب[٤٢] يُفصّلُ الصلة بين الدعوة وهي النداء والدعاء وبين الإعلام، وبين الدعاة ورجال الإعلام، ليصل إلى تعريف للدعوة في الإسلام بأنها إعلام بطريق الحق والهدى، وإرشاد إلى دين ووصية، ومنها قوله تعالى: (وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)، أي معلماً كاشفاً طريق الحق والرشاد.

قوله (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ) أي أعلم غيرك بسبيل ربك، وكل صور الإعلام عند الدكتور عمارة تشمله الدعوة، وتزيد الدعوة بشمولها للتعليم والتربية، فالدعوة لا تقتصر على الإخبار السريع كالإعلام بل تزيد بشمولها له، ولما يكون بتكرير وتكثير كالتعليم والتربية والثقافة... الخ) وقد تقتصر على مجرد الإبلاغ وإقامة الحجة، وحينئذ تترادف مع الإعلام. أما الوسائل فتتعدد وتتجدد بتعدد الإمكانات، وتجدد الظروف والأحداث والصناعات، وهذا التعريف بحث شكل الاتصال وأقام عليه الفروق بين الإعلام والدعوة، ومن خلال الشكل وضع تصوراً للتعريف، ونستطيع أن نقول: إنه مفهوم الهيئة لمعنى الدعوة أو مفهوم الحال.

والسير توماس أرنولد[٤٣] عندما يتحدث عن الدعوة إلى الإسلام يذكر مفهوم الدعوة باسم الرسالة، فيقول بأن الأديان الستة الكبرى في العالم يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين غير مختص، فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير، أما

---

(٤٢) د. عمارة نجيب ــ الإعلام في ضوء الإسلام ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ١٩٨٠م ص ١٥، ١٦.

(٤٣) سير توماس أرنولد ــ الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية (ترجمة د. حسن إبراهيم، د.عبد المجيد عابدين ــ إسماعيل البحراوي) ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٧٠م ــ ص ٢٥ ــ ٢٨.

البوذية والمسيحية والإسلامية فهي من القسم الأول، وقد ذكر "ملر" في محاضرة بلندن عام ١٨٧٣ دين الرسالة بأنه الدين الذي يسمو فيه نشر الحق، وهداية الكفار إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده، وإنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية.

ويقول "أرنولد" إن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخولها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكاناً بين ما نسميه أديان الرسالة، هي حماسة من هذا النوع، ويقول أرنولد: إن لانتشار الإسلام أسباباً اجتماعية وسياسية ودينية، ولكن هناك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى انتشار الإسلام هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدى الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة، ويضيف أرنولد بأنه لم تكن مهمة تبليغ الرسالة في تاريخ الإسلام بعد وقت طويل، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية، ويخلص أرنولد إلى القول بأن الإسلام منذ ظهوره كان دين دعوة من الناحية النظرية والناحية التطبيقية، وهذا التصور الذي وضعه المستشرق الإنجليزي للدعوة الإسلامية نأخذ عليه طعنه للدين اليهودي، فهو دين رسالة عندنا، وما جاء به موسى عليه السلام يقع في ضوء الإسلام موقعاً باهراً من جهود أولى العزم من الرسل، كذلك فإن لنا تصوراً خاصاً بدين الرسالة ودين غير الرسالة هو تصورنا الإسلامي لدور النبي ودور الرسول، ذلك أن كل رسول نبي ولكن ليس كل نبي رسولاً، والرسل هم المكلفون بالدعوة، بعد ذلك لا نرى شائبة في التصور العام لمفهوم الدعوة الإسلامية الذي رآه أرنولد، ولكنه مجرد تصور عام وليس تعريفاً لمفهوم الدعوة.

وخلاصة القول في تعريف الدعوة أنه من السهل والساطع إدراك معناها، وفي الوقت نفسه من العسير تحديد تعريف شامل لها؛ لأن كل عالم نظر إليها من زاوية علمه وبحثه.

إن الدعوة أشبه بالشمس، يُعَرِفها عالم الفلك بأنها نجم في مجرة طريق التبانة، ولكن الإنسان العادي على الأرض يحس بدفئها ويرى سطوعها، ولا يجد حاجة إلى مزيد، وعالم (الطبيعة) يضع المنشور الزجاجي أمام أشعتها فيحللها إلى ألوان الطيف، ولكن المصلى

من المسلمين لا يعنيه إلا غروبها ليصلي المغرب أو ليفطر في يوم صومه، إلى غير ذلك من ارتباط حركتها بالمواقيت الدالة على موعد آذان الظهر أو العصر، وما شابه ذلك.

ومع ذلك فإن التعريف ضرورة للبحث العلمي، وفائدة للقارئ العادي غير المتخصص، ويزيد تعريف الدعوة ظهوراً بتعريف الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية.

الحضـــــارة:

قبل أن نفرق بين مفهوم الحضارة الإسلامية والإعلام الإسلامي نؤكد على أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة العربية، ذلك أن المسلمين إن جاز أن نقول عنهم أمة بأي معنى من معاني الأمم، وشبهنا أمتهم بالخلية فالعرب هم نواة الخلية، وذلك لأن الحضارة العربية ارتبط ظهورها بانتشار الإسلام، وذلك لأنه بالمفهوم العالمي للحضارة فإن ما أطلق عليه الدور العربي للحضارة هو ما أطلق عليه الدور الإسلامي للحضارة.

وتعرف الحضارة بأنها جملة الإنجازات الملموسة التي يقدمها مجتمع من المجتمعات خلال عهد معين، في شتى مظاهر الحياة من سياسية واجتماعية وعمرانية ودينية نتيجة لتفاعل أبناء هذا المجتمع مع البيئة التي يعيشون فيها بشكل جيد، أي أن عناصر الحضارة الرئيسة هي البيئة الملائمة، والإنسان، والحياة الاجتماعية.

ولو نظرنا إلى الحضارة الإسلامية في ضوء هذه المفاهيم نجد أن الحضارة الإسلامية بسبب الحل الوسط للدنيا والآخرة وضعت الأساس الفلسفي للبناء والعمران والتنمية والتقدم، إلى الحد الذي ورد فيه حديث الرسول ﷺ يدعو من بيده فسيلة ليغرسها،س وقد علم بقيام الساعة أن يغرس الفسيلة، وعلى اعتبار العمل عبادة، ثم في الجانب الأخلاقي وضعت مبدأ أن الله يراك وإن لم تكن تراه، وأن الأعمال بالنيات، وأن حساب الآخرة تسجيل لكل ما تقدمه من عمل فهو مقنن ومعروف ومحدد، وعلى ضوء هذا الحساب تنعم بالجنة أو يقذف بك في النار.

وفي الرصيد الثقافي للحضارة الإسلامية استبقت كل ما كان فاضلاً من الجاهلية، بل وأضافت إليه – بحكم حركة التاريخ – الخلاصة الفاضلة من الحضارات القديمة، وبخاصة حضارات الشعوب التي أصبحت عربية إسلامية مثل البابلية والأشورية والفارسية والفرعونية.

ومن باب الربط لابد من تأكيد القول بأن مفهوم الجاهلية قبل الإسلام ليس المقصود به عدم المعرفة أو قلة العلم، وإنما يقصد به في مفهوم الجاهلية غلبة الهوى والعناد، وشدة الزلق والحماقة، واستيلاء الطيش على الإنسان، ولم يذكر التاريخ الظهور الفجائي لحضارة من الحضارات، وإنما تؤكد الدراسات التاريخية أن الحضارة نتيجة تطور وتدرج، وفي الحضارة الإسلامية، كان العرب قبل الإسلام يتاجرون مع أرقى أمم العالم المعاصر لهم، وتكشف آثارهم السابقة جداً[٤٤] للإسلام عن تقدم وعمران قديم، ثم كانت لغتهم في نضجها قبيل الإسلام شاهداً على تطور ورقي كفيلين بالاستجابة للحضارة.

وكان من العرب بعض من أهل الكتاب من اليهود ومن النصارى يسكنون في الجزيرة العربية، وكان من العرب بقايا قليلة جداً من الموحدين الحنفاء على ملة إبراهيم عليه السلام، وكان كل ذلك يصب في نهر الثقافة العربية قبيل الإسلام، وإنْ كان كل ذلك يمثل روافد صغيرة أمام سيل عبادة الأصنام الحاجب لكل فكر أو تفكير في ذلك الوقت، ذلك السيل الذي قهره الإسلام بفكرة الوحدانية الخالصة من كل الشائبات فتقدمت رايات الحضارة الإسلامية لتنشر ظلها على معظم العالم، ثم لتنقل بعد ذلك في الحضارة التي أخذت دورها أو احتلت مكانها، والمشكلة التي تواجه الباحث اليحايد، بل التي تواجه الحياد والموضوعية في حد ذاتها هي الصورة التي عليها المسلمون الآن من التخلف والفقر الإبداعي والجمود والرجعية وبين ما كانت عليه حضارتهم وما في حوزتهم من المعرفة والنور. إن أصدق تصوير لهذا المأزق هو الذي صوره حافظ إبراهيم شعراً:

أمن العدل أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدي؟

إن عدم الممارسة هو الذي أبدى الصورة المعاصرة للتخلف والعجز الظاهري لاستجابة الفكر الإسلامي لمطالب العصر.

وإذا تأملنا التحدي المعاصر الذي تواجهه الحضارة الإسلامية باعتبار أن ذلك يرتبط بدور الإعلام الإسلامي، فإننا نلاحظ أن العداء التاريخي من جانب الحضارة

---

(٤٤) مدائن صالح.

القائمة، وهي الحضارة الغربية الرأسمالية يقف تحدياً صارخاً، ثم العداء العقائدي للحضارة الناقدة للحضارة الغربية الرأسمالية ـــ وهي جزء منها اختلف معها وثار عليهـــا وهـــي الشيوعية – يقف تحدياً صارخاً أيضاً، ثم يؤكد هذا التحدي ويضخمه نجاح كلا الجانبين في إحراز التقدم.

لقد وجدت المجتمعات الغربية الرأسمالية أن تقليص دور الدين في المجتمـــع وســـيلة للتقدم المادي، ونجحت في الاحتفاظ بالدين داخل إطار أخلاقي وروحي بعيد عن حركة التقدم الاقتصادي والاجتماعي، ورأت المجتمعات الشيوعية أن القضاء على فكرة الدين في حد ذاتها بمثابة هدم سد يعوق التقدم، ولقد حقق المجتمع الرأسمالي الاحتكاري التقدم المادي وحقق المجتمع الشيوعي التقدم المادي.

ولكن مع الإسلام والمسلمين يحدث العكس، لا يمكن صنع التقدم بغـــير الإســـلام، والبلدان الإسلامية التي تركت الدين كأساس للحكم والحياة الـــسياسية والاقتـــصادية والاجتماعية انتقلت من مصاف الدول العظمى إلى مصاف الدول الصغرى، وتركيا مثال على ذلك، والبلدان التي أغفلت الدين من الدول الإسلامية وقعت تحت نير الاحتلال، والدول التي جاهدت تحت راية الإسلام حققت معجزة في التحرر ومثال ذلك الجزائـــر، هل كان يمكن أن تدفع مليون مجاهد جزائري أو أكثر للموت إلا إذا كان شعار الثـــورة الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا...؟. وفي مقابل هذا التحدي العالمي المعاصـــر للحضارة الإسلامية نجد أن أمامها فرصاً ذهبية للبعث تتمثل فيما يلي:

١ وضوح الفكرة الإسلامية، فالعقيدة الإسلامية تقوم على نـــواة شـــديدة الصلابة عقلاً ومنطقاً، وهي التوحيد المحض أو التوحيد الخالص، ذلك الذي شهد المستشرقون بأنه سر الإسلام الأعظم، وسر قوته وتفوقه كعقيدة، لقـــد ذكر الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون أن شدة وضوح الإســـلام هـــي سبب انتشاره، وأن وضوحه مشتق من قوله بالتوحيد المحض الذي فيه ســـر قوته، ولعل ذلك يفسر لنا كيف أن بعض الذين قهروا الـــشعوب العربيـــة الإسلامية واستولوا على بلادهم اعتنقوا الإسلام، دين المغلوبين، والمغـــول ثم الترك أوضح مثـــال على ذلك.

٢ عالمية الحضارة الإسلامية، فالناس فيها سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وكل الناس لآدم، هذه المبادئ التي جاء بها الإسلام وطبقها لا تدع مجالاً لسيادة دم أو لون أو طبقة على آخر، والإسلام لا يعترف بشعب مختار ولا يعترف بتفوق عرقي أو لوني، وهذه البوابة الواسعة للإنسانية هي بوابة الحضارة الإسلامية.

٣ الوسطية : وتتمثل في تلبية احتياجات الإنسان المادية والروحية، ولقد فصلنا ذلك عند الحديث عن العقيدة الإسلامية.

٤ الامتداد والديمومة : منذ بدأ الإسلام وحتى دخولنا في القرن الخامس عشر الهجري تستوقفنا ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن الإسلام موضوع معاصر خلال تلك القرون، سواء تقدم المسلمون أو تخلفوا، فالإسلام طرف في الصراع العالمي، والفكر الإسلامي طرف في الفكر العالمي معاصر لكل معاصرة، وممتد مع القرون والأجيال، ولا شك أن هذا الموقف الفريد له ما يبرره، وهو صفة الديمومة والامتداد.

٥ الإنسان المسلم : بحكم عقيدته مخول لحمل لواء الحضارة العالمية لماذا؟ لأنه لا يحمل عداء تاريخياً للأديان السابقة عليه، بل يؤمن بها جميعاً، ولا يحمل عُقداً وينبغي ألا نخلط بين واقع الإنسان المسلم المعاصر، وهو واقع بائس شديد التخلف وبين قابليته للحضارة العالمية، وقابليته لحمل لوائها، تلك القابلية التي تتمثل في الصلاحيات النفسية والذهنية لهذا الدور، ولقد حدثنا التاريخ عن تجربة الإنسان المسلم في حمل لواء الحضارة بما يؤكد معنى الصلاحية والقابلية والاستعداد.

يذكر جوستاف لوبون في كتابه: "حضارة العرب" العوامل التي مكنت العرب من صعود سلم الحضارة قائلاً: "لم يلبث العرب بعد خروجهم من صحارى جزيرتهم أن وجدوا أنفسهم أمام ما بهرهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية، وإن أدركوا تفوقها الثقافي، كما أدركوا تفوقها الحربي فيما مضى، فجدوا من فورهم ليكونوا على مستواها" ثم يعقب قائلاً: "والحق أن الرجل المثقف قد يجهل أموراً كثيرة، وإنما يتعلمها بسهولة لما

فيه من الاستعداد الذهني، وقد أظهر العرب في دراسة العالم الجديد في أعينهم، من الحماسة كالاستعداد الذي أبدوا لفتحه".

إن ما يذكره "لوبون" هو ما نسميه في لغة الإعلام المعاصرة التقمص الوجداني الذي يعُد ضرورياً لتقدم الإنسان، ومن هنا نرى أن الإعلام يشترك مع الحضارة في الاعتماد على الإنسان، ذلك الذي لا تقوم بالحضارة إلا به ولا تنمو إلا من أجله، والإنسان هو الذي يمثل قطب الرحى في الظاهرة الإعلامية.

الثقافة:

إن معنى الثقافة في اللغة العربية مجاز مأخوذ من تثقيف الرمح، أي تسويته، وفي الشعر العربي القديم قول ابن دريد:

والشيخ إن قومته من زيغه ... لم يقف التثقيف منه ما انحنى

والتثقيف هنا بمعنى التهذيب والتقويم الخلقي، وفي اللغة الإنجليزية نجد أن معنى الثقافة في الكلمة Culture معنى مجازي انتقلت إليه الكلمة من المعنى الحسي الأصلي، وهو معنى الزراعة أو التربية (المادية)، ولهذا تدخل كلمة Culture في تركيبه كلمة (Agriculture)[٤٥].

ويشرح القاموس الفرنسي Larousse كلمة ثقافة Culture بأنها مجموع المعارف المكتسبة من تعليم ومهارة، ويرى الدكتور عبد الحميد يونس[٤٦] أن الثقافة هي المجال الاجتماعي لجميع الأفراد في قومية من القوميات أو في وطن من الأوطان.

ويرى محمود أمين العالم[٤٧] أن الثقافة كتعبير أدبي أو فني أو كطريقة خاصة للحياة إنما هي في الحقيقة انعكاس للعمل الاجتماعي الذي يبذله شعب من الشعوب بكافة فئاته وطوائفه، ومظهر لما يتضمنه هذا العمل الاجتماعي من علاقات متشابكة، وجهود مبذولة

---

(٤٥) د. شكري محمد عياد: ملاحظات نحو تعريف الثقافة – تأليف ت.س.اليوت – مطبعة مصر– ص ٢٣

(٤٦) د. عبد الحميد يونس ـــ فن الإذاعة، أثر الإذاعة في المجتمع ـــ مركز التربية الأساسية في العالم العربي بمرس اللبان ـــ دار المعارف ـــ ١٩٥٨م ـــ ص ١١.

(٤٧) محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ـــ الثقافة المصرية، دار الفكر الجديد ـــ ١٩٥٥م ـــ ص ١٨.

واتجاهات، فالأساس الذي تقوم عليه الثقافة إذن ليس شيئاً جامداً، أو عقيدة محددة، وإنما هي عملية لها عناصرها المتفاعلة واتجاهاتها المتطورة.

ويرى الدكتور الفاروق زكي يونس[٤٨] أستاذ الاجتماع المصري أن تعريف روبرت بيرستد الذي ظهر في أوائل الستينيات من القرن العشرين الميلادي من أبسط التعريفات وأوضحها في تعريف الثقافة حيث يرى أن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع.

ولقد عرف الباحث[٤٩] الثقافة بأنها تعبير عن الفكر الإنساني، وتنمية لهذا الفكر بمختلف الوسائل المتاحة في المجتمع.

ومن هنا يمكن تعريف الثقافة الإسلامية بأنها الثقافة المشتركة للشعوب الإسلامية والتي وإن اختلفت صورها من مجتمع إلى مجتمع ومن جيل إلى آخر إلا أنها تشترك في السمات الإسلامية، ولا تتعارض بطبيعة الحال مع العقيدة الإسلامية، وما عداها لا ينتمي إلى الثقافة الإسلامية وإن ظل إلى جوارها، فالعمارة الإسلامية مثلاً في مصر والشام والعراق جزء من الثقافة الإسلامية، ولكن لوحات الفن السريالي والطبيعة الحية العارية ليست من الثقافة الإسلامية، وإنما هي امتداد للثقافة الغربية أو هي جزء من الثقافة العربية في مرحلة التبعية. وذبح الماشية في السودان والسعودية مثلاً جزء من الثقافة الإسلامية ولكن تقاليد التباهي والإسراف في الأفراح ليس من الثقافة الإسلامية، وإنما هو من رواسب الماضي أو من طوارئ الحاضر، وهكذا يمكننا أن نبعد أو نستبقي أي عنصر من عناصر الثقافة الإسلامية بردها إلى أصول العقيدة فما اتفق معها هو منها وما اختلف معها فليس منها، وعلى الباحث أن يبحث عن مصادره إن أراد.

والثقافة الإسلامية متجددة لارتباطها بالفكر الإسلامي، فالتفكير فريضة إسلامية كما يقول العقاد، والعقل شرط للتكليف في الفقه الإسلامي، ولكن مصطلح الفكر الإسلامي -كما نراه- في ضوء حديثنا عن الثقافة الإسلامية هو العروق والشرايين التي تنتشر في جسم هذه الثقافة، أو بتشبيه آخر هو الهيكل العظمي الذي تكسوه لحوم الثقافة

---

(٤٨) مقدمة العدد ٢٢٣ ـ من سلسلة عالم المعرفة.

(٤٩) د. محمد سيد محمد ـ الإعلام والتنمية ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ١٩٧٩م ـ ص ٤٥.

وشحومها، ولا تخرج عن مجاله الحيوي، والفكر الإسلامي إبداع متجدد، لثلاثة أسباب رئيسة: أولها القرآن. وثانيها: الاجتهاد في الأحكام. وثالثها: موقع الفكر في العقيدة الإسلامية.

فمن أسرار القرآن أنه كنز لا ينفد من التأمل والاستكشاف والاستجلاء، ويكفي أن نضرب مثلاً بالآية: (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) تلك الآية التي وقف الأقدمون أمامها على تأمل حركة البنان ودقته ووظيفته، ثم جاء المحدثون ليضيفوا سر البصمة إلى كل ذلك، ثم نجد أن من طبيعة الفقه الإسلامي اتساعه للاجتهاد والبحث المنطقي المنظم لتلبية حاجات التطور وضروراته، ومن يقلب في التراث الإسلامي يجد بحراً زاخراً لا ينضب، ومن يتأمل في حركات التجديد الإسلامي للأئمة من أمثال محمد عبده ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد إقبال والمودودي والشعراوي يجد حيوية كموج البحر لا تكل ولا تتوقف.

وقبل أن نختم حديثنا عن مصطلح الثقافة ومصطلح الحضارة نشير إلى إضافة علمية جديدة طرحها الرئيس البوسني الراحل علي عزت بيجوفتش يقول فيها: "هناك خلط غريب بين فكرة الثقافة وفكرة الحضارة. الثقافة تبدأ "بالتمهيد السماوي" بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة، وستظل الثقافة تُعنى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها، فكل شئ في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان. تتميز الثقافة بهذا اللغز، وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز.

أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة. هذا الجانب من الحياة يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة والمستوى والتنظيم. هنا لا نرى إنساناً مرتبكاً في مشاكله الدينية، أو مشكلة "هاملت" أو مشكلة "الإخوة كرامازوف"، إنما هو عضو المجتمع الغُفل، وظيفته أن يتعامل مع سلع الطبيعة ويغيّر العالم بعمله وِفْقاً لاحتياجاته.

الثقافة[٥٠] هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها "الفن الذي يكون به الإنسان إنساناً"، أما الحضارة فتعني "فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة"، الثقافة هي "الخلق المستمر للذات". أما الحضارة، فهي "التغيير المستمر للعالم". وهذا هو تضاد: الإنسان والشيء، الإنسانية والشيئية[٥١].

الدين والعقائد والدراما والشعر والألعاب والفنون الشعبية والقصص الشعبية والأساطير والأخلاق والجمال، وعناصر الحياة السياسية والقانونية التي تؤكد على قيم الشخصية والحرية والتسامح، والفلسفة والمسرح والمعارض والمتاحف والمكتبات — يمثل هذا كله الخط المتصل للثقافة الإنسانية، الذي بدأ مشهده الأول في السماء بين الله والإنسان. إنه "صعود الجبل المقدس، الذي تظل قمته بعيدة المنال، سيراً في الظلام بواسطة شمعة مضيئة يحملها الإنسان"[٥٢].

الحضارة هي استمرار للتقدم التقني لا الروحي، والتطور "الداروينيّ" استمرار للتقدم البيولوجي لا للتقدم الإنساني. تمثل الحضارة تطور القوى الكامنة التي وُجدت في آبائنا الأوائل الذين كانوا أقل درجة في مراحل التطور، إنها استمرار للعناصر الآلية، أي العناصر غير الواعية التي لا معنى لها في وجودنا.. ولذا، فإن الحضارة ليست في ذاتها خيراً ولا شراً. وعلى الإنسان أن يبني الحضارة تماماً، كما أن عليه أن يتنفس ويأكل. إنها تعبير عن الضرورة وعن النقص في حريتنا. أما الثقافة، فعلى العكس من ذلك: هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان.

---

(٥٠) يقول الرئيس الراحل علي عزت بيجوفيتش: تتصل كلمة ثقافة "Culture" من ناحية الأصل اللغوي بكلمة "Cult" عبادة وهي باللاتينية Cultus، وهما ذوا أصل مشترك في الكلمة الهندوأوروبية Kwel. أما كلمة حضارة Civilization فمتصلة بكلمة وطن Civis، أو موطن.

(٥١) "Chosism" الشيئية مشتقة من الكلمة الفرنسية Chose بمعنى شئ، وقد استخدم المصطلح الأول لأول مرة عالم الاجتماع الفرنسي "دور كايم" ويعني به بحث الظاهرة بحثاً موضوعياً، أي من الخارج باعتبارها شيئاً فحسب.

(٥٢) "اندريه مالرو" Andre Malraux: Antimemoirs, Serbocroation trans (Zegreb: Naprijed,)

يزداد اعتماد الإنسان على المادة في الحياة الحضرية بصفة مستمرة، وقد وجد أحدهم أن كل أمريكي - رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً - يستهلك في المتوسط ١٨ طناً من المواد المختلفة في السنة"[٥٣].

هكذا تحدث الرئيس الراحل علي عزت بيجوفيتش في الثقافة والحضارة. وحديثه إضافة علمية ونافعة عن خبرة ومعايشة للغرب. ولكننا لا نأخذ بها في هذا البحث، ولا نردها في الوقت نفسه.

أما عن موقع الفكر في العقيدة الإسلامية فإنه يحتل مكاناً مرموقاً يصل إلى حد الفريضة، فالقرآن يدعو الناس مباشرة إلى التفكير والتدبر، ومن هذا الأساس العقائدي أصبح التفكير حراً في الإسلام، ولقد ضرب القرآن أنصع مثل على ذلك في حواره مع الكفار والمنافقين ومن علُقت بأذيالهم السماوية شوائب الضلال، فنجد في القرآن ادعاءات هؤلاء جميعاً والرد عليها، ليس في الفكر الإسلامي (التابو) أي المحظور والممنوع، ومن الغريب أن عصور الضعف هي التي تقيم أسواراً على الفكر بحجة حماية الإسلام ومنْ يقول بذلك يتناقض مع الفكر الإسلامي من جانب، ويبدو عدم يقينه في دينه من جانب آخر.

إنني أرى أن الفكر الإسلامي قادر على مواجهة كل فكر يعاديه وعلى تحديه وعلى قهره بالحجة والمنطق، وإذا لم يكن المسلم مقتنعاً بقوة الفكر الإسلامي كيف يعتنق الإسلام الذي يترتب على اعتناقه الموت في سبيله والتضحية بالمال ومشقة الطاعة والجهاد، إن كل المذاهب وكل الفلسفات يجب أن تعرض على المسلمين ويعرض الرد عليها، تماماً كما نهج القرآن في عرض دعاوى الكافرين والمنافقين والضالين تفصيلاً ورد عليها رداً قاطعاً شافياً مبيناً.

ما الذي يربط كل هذه المسميات؟ يربطها الإسلام.. إن الإسلام روح، هل منا مَنْ لا يعرف الروح؟ ولكن هل منا مَنْ يستطيع وضع تعريف لها؟.

إن الإسلام روح إذا دب في الحضارة وأصبحت حضارة إسلامية فهنا نستطيع تعريفها، وإذا دب في الإعلام وأصبح إعلاماً إسلامياً، استطعنا أن نقننه ونفلسفه ونضع

---

(٥٣) علي عزت بيجوفيتش ــ الإسلام بين الشرق والغرب ــ (ترجمة محمد يوسف عدس) ــ مجلة النور الكويتية ــ ١٩٩٤ ــ ص ٩٤، ٩٥.

له الخطط والبرامج، وإذا دب في الفكر وأصبح الفكر إسلامياً، وإذا دب في الثقافة وأصبحت الثقافة إسلامية هنا يمكن تمييز الفكر وتمييز الثقافة ومناقشة سماتهما ومصادرهما ويمكن تحليل كل منهما ومقارنته وتقييمه، وما دام واجب الدعوة والإعلام أن يعبرا عن كل ذلك فينبغي على المشتغل بالدعوة وعلى رجل الإعلام أن يلم بطرف من كل ذلك. ليس بالمعنى القديم لتعريف الأدب بأنه الأخذ من كل شيء بطرف، ولكن وفق أهمية الخلفية الثقافية العامة وضرورتها للتخصص في الخطاب الإعلامي في عالمنا المعاصر والجمهور الذي نتوجه إليه بالدعوة وبالإعلام بها.